

عنوان البرنامج: مدخل لدراسة التصوف
الوحدة الأولى: مقدمات منهجية لدراسة التصوف
الدرس الأول: منهج دراسة التصوف
اسم المحاضر: الدكتور عبد الصمد غازي

منهج دراسة التصوف

يسعى هذا الدرس إلى بيان الاختيار المنهجي في دراسة التصوف الإسلامي، والذي ينطلق من كون التصوف خطابا وممارسة ذو طبيعة خاصة في الفكر الإسلامي تستلزم تعاطيا منهجيا خاصا كذلك.

فاستقصاء الدراسات المختلفة منذ بواكير البحث في الفكر الصوفي إلى اليوم، والتي حاولت أن تبث مدوناته الفكرية بتحقيق مخطوطاتها وجمع تراثها وتصنيفه، ورصد وتتبع صيرورتها العملية والميدانية من خلال التأريخ لمدارس التصوف وطرقه ورجالته التي تتميز بالاتساع والامتداد زمانا ومكانا، نجد أنها عملت على دراسته وإصدار الأحكام حوله انطلاقا من المناهج التي توسلت بها، ورؤاها المعرفية أو الإيديولوجية التي انطلقت منها سواء عند المستشرقين أو الباحثين في جل أقطار العالم الإسلامي.

ولذلك كان الحرص في هذا المدخل لدراسة التصوف على الالتزام بالنصوص الصوفية التي تشكل أصل النظر والعمل الصوفيين، والمعتمدة من رواد الصوفية أنفسهم، والتي تمكن الباحث من تكوين تصور شمولي عن التصوف انطلاقا من مقوله وليس مما قيل حوله، في تجانف عن أغلب المقاربات التقويمية، التي لا تستطيع أن تنفك عن المدح أو الذم الذي يحجب كثيرا من الحقائق العلمية، ويصدر أحكاما تفتقد إلى التبين والتثبت.

لقد كان لمثل هذا التعميم المنهجي الذي يغيب الخطاب الصوفي في كليته النبوية المتميزة أثر في توجيه كثير من الأبحاث التي لم تكلف نفسها عناء السؤال المتجدد، والفحص المتأن الذي يسعى إلى بناء المعرفة والسلوك الإسلاميين انطلاقا من قوانين اشتغال المجال التداولي الإسلامي، مما كان له الأثر البالغ في إصدار جملة من الأحكام المرسلة والدعاوى العريضة التي ساهمت في الجناية على التصوف وأهله،

وطمس معالم التراث الأخلاقي في الإسلام، كالدعاء بأن التصوف جسم دخيل ووافد من حضارات أجنبية، وكالزعم بأنه بدعة لا سند شرعي له، وبالتالي لا مشروعية له في المجال التداولي الإسلامي.

غير أن التصوف كما سنتابع في سلسلة الدروس المقبلة المكونة لهذا المدخل الدراسي، ظل دوما حقيقة راسخة ومكينة تتأبى على الانصياع للقولاب الجاهزة والإسقاطات الحضارية المختلفة، والمقارنات الظاهرية المتسرعة والعقيمة، لانفراده بخواص ينبغي أخذها بعين الاعتبار، واستصحابها في كل مقارنة تنشُد الجدة والأصالة:

- فالتصوف ممارسة عملية وتجربة ذوقية وشهود كشفي.

- والتصوف تجربة لها صلة أوثق بالوجدان المنضبط بالأصول الشرعية والآداب المرعية، الأمر الذي يستوجب التورع في إصدار الأحكام، والتبين في إطلاق الأوصاف والنعوت. وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن سر تغييب أو إغفال منهجية علمية أصيلة تميز بها الذكاء العلمي الإسلامي ألا وهي منهجية التوقف والتسليم وعدم الاستعجال في إصدار الأحكام وذلك لخصوصية الخطاب الصوفي من جهة سير أهله ولطافة معارفه وطبيعة لغته.

إن طريقة التسليم في ثقافتنا الإسلامية في حاجة إلى الإحاطة بمبادئها وقواعدها وإجرائيتها بما تكتنزه من معاني التبين والتثبت العلميين، وليس النظر إليها بمعنى العجز والسلبية، فالعلماء كانت لهم الجرأة والشجاعة العلمية والأخلاقية على قول لا أدري في مواطن الفتوى التي تمس الأحكام الظاهرة، فما بالك بالأحكام الباطنة؟!

وكما يتعين تفعيل منهج التسليم والتوقف على الوجه المذكور، يتعين استلزام اتجاه النقد الذاتي لدى بعض أرباب التصوف، إذ من المعلوم أن الفكر الإسلامي عرف اتجاهات مختلفة في نقد التصوف بعضها من داخله لتصحيح مسار الفكر الصوفي والتنبيه على غلطات بعض الصوفية، حيث يمكن إدراجها فيما يمكن تسميته باتجاه التقويم الداخلي للتصوف، والذي كان مسعى أربابه هو تنقية الطريق الصوفي من دعاوى الدخلاء والأدعياء، والتحذير من اتباعهم، وتثبيت دعائم الممارسة الأصيلة في مجتمع تتجاذبه تيارات فكرية وسلوكية عديدة ومنازع مذهبية متنوعة، منها ما هو متصل بالفقه، ومنها ما له ارتباط بالكلام وغيرها.